

زلات اللسان وسقطات الكلام في مرآة التحليل النفسي

د. علي أسعد وطفة

"ما يفتح به القلب ينزلق به اللسان"

مثل عربي.

يعتقد أنصار مدرسة التحليل النفسي أن لا شيء يحدث بالصدفة في مجال السلوك والحياة النفسية، فكل سلوك يتحدد بأسبابه الموضوعية، وكل سلوك يجري لتحقيق غاية مرسومه، وذلك ينسحب حتى على أبسط أنواع السلوك الإنساني وأقلها أهمية. فالسلوك الإنساني أبسط تجلياته سلوك يتسم بالغائية ويجري بصورة سببيه موضوعيه.

ومن هذا المنطلق كان لمدرسة التحليل النفسي شأن كبير في تفسير السلوك الإنساني وفقا لمعايير وإشارات تنطوي على كل معاني البساطة والسذاجة وخاصة هذه التي توجد في هفوات الكلام وزلات اللسان. ولم يكن

ذلك حكرا على مدرسة التحليل النفسي ففي التراث العربي ما يشير إلى عبقرية العرب في إدراكهم لهذه الجوانب ويمكن في هذا الصدد الإشارة إلى القول العربي المشهور وقوامه : ما أخفى الإنسان شيئا إلا وظهر في فلتات كلامه وزلات لسانه . ويقول الشاعر العربي :

و يَأبَى الَّذِي فِي الْقَلْبِ إِلَّا تَبَيَّنَّا * * * * * وَكُلِّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْصَحُ

ويتميز تراث العرب بالغنى والأصالة في هذا الميدان حيث يتفوق ربما على نظرية التحليل النفسي في مجال تفسير الإشارات الرمزية للسلوك البسيط والذي يحمل دلالات بعيدة المدى في الكشف عن مجاهل الشخصية الإنسانية وخفاياها. ويكاد فن العرب الذي نطلق عليه الفراسة العربية يشكل قاموسا رائعا لعلم نفس الأعماق الذي تنادي به المدرسة الفرويدية في القرن العشرين.

وقوام علم الفراسة عند العرب الوصول إلى تفسير عميق لماهية الأشياء من خلال بعض الملامح الرمزية التي تتخلل السلوك والمظاهر السلوكية الإنسانية بدءا من القول البسيط إلى الإشارات السلوكية السطحية التي كانت تشكل منطلق العرب في فهم ما خفي من أمر الناس. وللعرب في تفسير الأحلام التي أبدع الفرويديون في تفسيرها شأن عظيم فالرمزية العربية للحلم بقيت تتميز بالأصالة والروعة وهذا ما يمكن لنا أن نراه بوضوح في تفسير الأحلام الذي أبدع في فنونه فيلسوف العرب أبو علي الحسين ابن سينا فخصص له فصولا وأبحر في إدراك جوانبه وفصوله وتجلياته. ومن يقرأ اليوم كتيب تفسير الأحلام لابن سيرين وهو من أكثر الكتب شعبية في البلاد العربية يجد فيه منظومة رمزية لا تقل أهمية ربما على هذه التي نجدها في كتاب ومقولات فرويد حول الأحلام.

ومع ذلك فإن نظرية التحليل النفسي تنطلق ربما من معطيات المراحل التاريخية وتوظف غنى هذه المراحل من أجل الوصول إلى تفسير الغامض في السلوك الإنساني على أسس أقرب إلى المنهج العلمي.

ولا ضير من النظر في معطيات وفنون هذه المدرسة في تفسير هفوات السلوك وهنّاته ومواطن ضعفه وما ينطوي عليه من دلالات ومعاني خفية في صيغها الظاهرة وفي ذلك طرافة وظرف.

ومن هذا المنطلق يعتقد فرويد بأنه يمكن لأفعالنا اليومية البسيطة أن تكون تعبيراً عن نزعة لاشعورية متخفية ودفينة، ومن هذا المنطلق يسعى في كتابه علم النفس المرضي للحياة اليومية *Psychologie de la vie quotidienne* إلى تحليل سلسلة من الظواهر السلوكية التي يفترض بأنها تصدر من دائرة العمق اللاشعوري. وتأخذ هذه المظاهر السلوكية صورة أحداث يومية بسيطة غالباً ما تعزى إلى مجرد المصادفة مثل: زلات اللسان، وهفوات الكلام، والنسيان المؤقت للأسماء، وضياع الأشياء المزعج والأفعال الناقصة، والأحداث العرضية من كل نوع. وإزاء هذه المظاهر يطبق فرويد اكتشافاته السابقة فيجد أن هذه المظاهر تعكس هجمة من النزعات اللاشعورية المتجهة إلى ساحة الشعور.

فالهفوات اللسانية لا تعبر عن الطبقات العميقة في المنطقة اللاشعورية فحسب، بل تعبر عن الصراعات النفسية الداخلية يوضحها المثال التالي: كنا على وشك تدخين علبة جديدة من التبناك ولكننا قلنا لأنفسنا بأننا نستطيع أن ننتظر وبعد مرور لحظات استغرق كل منا في عمله ودهشنا عندما وجدنا أنفسنا جميعاً نشعل الغليون من العلبة الجديدة. هذه العملية بسيطة لمن اعتاد على مثل هذه العمليات اللاشعورية، ولمن ألف ما يسمى بالصراعات النفسية. لقد استبعدت النزعة الأولى، ولكنها كانت تسعى إلى تحقيق نفسها، ولا سيّما عندما تتوقف عمليات المراقبة. ونحن هنا نلاحظ ما يمكن أن يحدث على المستوى الواسع ولا سيّما بالنسبة للنزعات التي توجد في العمق النفسي كما هو الحال في حالي العصاب والأحلام ففي المثال السابق، تحررت النزعة اللاشعورية وانطلقت دون أية مصالحة أو اتفاق منطقي بين الشعور واللاشعور.

الهفوات اللغوية:

في حالة الهفوات ولا سيّما زلات اللسان وهفوات الكلام تكون الغاية مرغوبة لاشعوريا، حيث تترك الكلمة المطلوبة مكانها لكلمة أخرى غير مناسبة. وفي كل الأحوال إذا كانت الهفوات أكثر تكرارا في حالة التعب والإرهاق فإن حدوثها مرهون إلى حدّ كبير بمجموعة من الشروط ذات الطابع الفيزيولوجي، وهي تحمل في أكثر الحالات دلالة نفسية. حيث يترافق التعب بحالة ضعف الرقابة النفسية الخاصة بالكلام وبناء على ذلك فإن الكلمة أو الفكرة المشوشة يمكن أن تمثل دافعية مضادة تناهض وبشكل مباشر المعنى المراد وقد تكون هذه الفكرة أو هذه الكلمة ذات طابع غائي في المستوى اللاشعوري.

يسوق لنا فرويد مثالا عن النوع الأول من هذه الهفوات حيث يروي لنا الهفوة التي تخللت إحدى الخطب الرسمية التي ألقاها رئيس مجلس الشعب النمساوي في إحدى الجلسات الرسمية حيث افتتح الجلسة قائلا: "سيداتي سادتي أعلن عن إغلاق الجلسة لحضور أكثرية الأعضاء" ويوضح هذا المثال أن الزعيم لم يكن يرغب في افتتاح هذه الجلسة.

ويسوق مثالا آخر من النوع الثاني من الهفوات وهو حديث سيدة عرفت بحيويتها تشرح فيه أن زوجها "استشار طبيبه حول موضوع حمية يريد اتباعها وأن الطبيب قال له لا حاجة لك باتباع أية حمية وأنه يستطيع أن يأكل ويشرب ما أريده أنا". الضمير هنا يعود للسيدة، وهنا كما يبدو تعبر هذه الهفوة عن تداخل شفوي لرغبتين مختلفتين. فهناك النزعة المشوشة، وهذا يعني أن سبب الهفوة بقي سطحيًا وخارجي ويمكنه أن يتحول إلى صورة شفوية.

في كثير من الأحيان تبقى النزعة الفوضوية المشوشة لاشعورية، وليس غريبا أن ترى الشخص المعني ينفي وبقوة التفسيرات المطروحة، وفي هذا الخصوص يروي لنا فرويد أن أحد الأطباء المساعدين في مشفى فيننا Vienne قد رغب في شرب نخب أحد أساتذته فناده قائلا: إنني أدعوك

إلى إسقاط نجاح رئيسنا " وذلك بدلا من أن يقول " إنني ادعوك لشرب نخب نجاح رئيسنا" وهنا يؤكد فرويد على وجود غير عدوانية عميقة ضد الأستاذ، وهو عندما وضع المساعد في هذه الصورة أجابه بطريقة غير ودية. ويبدو أن الأمر يتعلق هنا بنزعة مكبوتة وهي بالتأكيد مجهولة من قبل صاحبها. وفي بعض الحالات وعندما تكون الهفوات عائدة لبعض المرضى فإن المحلل يدرك بعمق لاشعور هؤلاء من خلال الحلم أو من خلال التداخيات. لقد قال له أحد مرضاه ويدعى جونز Jones كان والدي مخلصا لزوجتي! ثم عاد قائلا "كان يجب أن أقول أمي بدلا من زوجتي". وفي إطار ذلك يمكن القول إن الأسباب الأساسية لعصاب هذا المريض تكمن في آلامه الخاصة بتعلقه الشديد بأمه حيث نجد هنا تركيزا على الأم. ويقول فرويد في هذا الخصوص لو لم يكن تفكير هذا المريض قد تعرض للكبت فإنه كان يتوجب عليه أن يقول بالأحرى "موقفى تجاه والدي هو موقفى نفسه تجاه والدتي".

فالهفوات الكلامية والأخطاء الكتابية تفسر بصورة لاشعورية. ويمكن إضاءة هذه الفكرة بسرد حديث السيدة التي قالت بأنها تلقت رسالة من صديق قديم تنتهي بهذه العبارة: "أتمنى أن تكوني بصحة جيدة ويائسة"، لقد كان يرغب يوما في أن يتزوجها وبالتالي فإن هفوته تشير إلى رغبة دفينية لديه في أن يراها يائسة.

الإدراكات الخاطئة:

يمكن لنا أن نفسر أخطاء الإدراك بطريقة مماثلة فنحن أحيانا لا نرى أشياء ننفر من رؤيتها وعلى خلاف ذلك فإننا نرى دائما ما نرغب في رؤيته. ويمكن القول في هذا النطاق أن أخطاء القراءة هي عملية إزاحة لكلمات نرغب فيها. والمعرفة الخاطئة لبعض الأشخاص تعبر عن رغبة دفينية في رؤية الأشخاص الذين نحبهم. وعلى خلاف ذلك يمكن لشخص لا يهمننا أمره ونعرفه جيدا أن يمر بقرينا في الشارع من دون أن نتعرف إليه.

النسيان:

يعارض فرويد في تفسيره للنسيان الفكرة التقليدية التي تقول بأن النسيان ظاهرة سلبية وأنها عملية زوال للمعلومات. وهنا يتحدث فرويد عن نسيان نشط ناجم عن كوابح. ونلاحظ في هذا الخصوص أن هذه الفكرة تأخذ أهمية مركزية في التحليل النفسي، فالأحداث المؤلمة غالبا ما تُصد وتستبعد من ساحة الذاكرة.

هذا ويعطي فرويد أهمية خاصة لظاهرة نسيان الأسماء: عندما ننسى اسم شخص ما فذلك قد يعني أنه لا يهمننا كثيرا وقد يعبر عن موقف عدواني تجاهه أو لأن هذا الاسم يذكرنا بخبرات غير سارة. يروي جونيس أن أحد أصدقائه قد تعرف على فتاة شابة ثم أصبحت صديقتة فيما بعد... ولكن حدث له أنه كان يجد صعوبة كبيرة في استذكار اسم عائلتها وذلك في الوقت الذي كان فيه يرغب في أن يوجه إليها رسالة ثم يبقى هكذا لمدة أسابيع دون أن يستطيع أن يوجه لها رسالة. ولم تساعده الرسائل التي كانت تصله منها لأنها كانت تحمل اسم المعمودية.

لقد بين التحليل أن اسم المعمودية الخاص بالفتاة كان اسم فتاة ثانية كان يدللها، وهو أيضا اسم فتاة ثالثة كان يحبها عندما كان صغيرا، لقد كان ينقل محبته من الواحدة إلى الأخرى. لقد استطاع أن يتمثل وبشكل لاشعوري الفتيات الثلاثة داخل نفسه. وبهذه الطريقة يبقى مخلصا لحبه وهو بالتالي كان يتراجع أمام أية ذكرى تشير إلى عدم إخلاصه الحقيقي.

وفي النهاية يمكن القول إن فرويد كان متوافقا مع الرأي الشائع الذي يعطي خصائص إيجابية للنسيان. وغني عن البيان أن هذا الرأي ينظر إلى الفرد بوصفه مسؤولا عن أخطاء ذاكرته. وفي هذا الخصوص نجد أن النساء والسلطات العسكرية ترى أن كل ما يتصل بهما يجب أن لا يكون في

متناول النسيان. وإذا كان الأمر يتعلق بمسألة هامة فإن النسيان يدل على أهمية خاصة تستحقها. ومن هذا المنطلق يبدأ فرويد بتحليل دقيق لسلوكات المجاملة والرياء الاجتماعي.

فالاعتذار بسبب ضعف الذاكرة قد يسبب آلاما أكثر شدة. لنتصور سيدة ما تستقبل ضيفها وهي تقول "كيف نسيت أنه اليوم الذي اتفقنا فيه على أن تأتي لزيارتي أعذرني لقد نسيت ذلك تماما". إن هذه السيدة تفتقر وفقا لصورة الاستقبال هذه إلى كل الشروط الخاصة باللياقة وبالتالي فإن النسيان في حالتها هذه يعود إلى رغبة قد تكون لاشعورية ولكنها جارحة في كل الأحوال.

إن نسيان الهدايا التي حصل عليها الشخص من أحد أصدقائه أو معارفه لا يعبر عن موقف جيد تجاه الأشخاص الذين قدموها. وعندما يحدث في شهر العسل أن تضع فتاة خاتم خطبتها مرات عديدة فإن ذلك يمثل طابع شؤم بالنسبة لمستقبلها الزوجي.

ويذكر فرويد في هذا الخصوص قصة طريفة لزوجين لم تكن علاقتهما مشبعة بالعاطفة ومفادها أنه في إحدى الأيام قدمت الزوجة لزوجها هدية وهي عبارة عن كتاب للفيلسوف الشهير كانت وكانت تعتقد أنه سيثير اهتمامه. شكرها الزوج ثم وضع الكتاب جانبا. وخلال ستة أشهر لم يستطع أن يعثر على الكتاب. وعندما كانت أمه تعاني من المرض وكان يحبها كثيرا كانت زوجته تعتني بها بكل وفاء وتضحية وهو عمل كان يلامس فيه أعماقه وكان من شأن ذلك إيقاظ عاطفته نحو زوجته. وفي إحدى الأمسيات عند عودتهما من عند الأم المريضة وهو يشعر بالامتنان تجاه زوجته اقترب من إحدى الخازنات الصغيرة ثم فتحها أليا وسحب جرارا بداخلها ثم أخرج الكتاب المفقود.

وفي النهاية يمكن القول أن علم نفس الأعماق ينطوي على إشراقات تتميز بالأصالة والجمال وهو مع ذلك لم يتفرد في هذا الموضوع فتراث الإنسانية يشكل كما يذهب فرويد نفسه ينبوعا ثرا لحركة هذه النظرية ومعطياتها. وما أضافته هذه المدرسة في تفسيرها لواهنات السلوك يتألق في استخدام منهجية علمية متكاملة في تحليل الرموز والتوغل في فيافي الأعماق للكشف عن هوية بعض الأنماط

السلوكية المتخفية والتي كان لها أثر كبير في علاج بعض الأمراض النفسية العضال. فالعيادات النفسية الخاصة بالأطفال تشتمل اليوم على صالات من ألعاب الأطفال والتي يوجد فيها ربما جميع الألعاب التي يمكنها أن تعبر عن الوسط الذي يعيش فيه الطفل وعندما يخل الطفل إلى هذه الصالات يخضع من حيث لا يدري للملاحظة العلمية وهو عندما يلعب ويختار أعباه يسقط دفائن آلامه وصعوباته النفسية التي تتيح للمحلل النفسي أن يدرك المعاناة النفسية للطفل فيعمل على حلها: فالطفل الذي يبحث عن لعبة تحمل شاربين ولحيه ويبدأ بضربها بشدة قد يعاني من قسوة الأب وفي كل خيار وحركة تكمن دلالة قد تساعد عالم النفس في الكشف عن هوية المرض النفسي الذي يعاني منه مريضه.

لقد وظفت مقولات التحليل النفسي في تفسير خفايا السلوك توظيفا إنسانيا في معالجة المرضى وذلك إضافة إلى أهميتها في مجال فهم السلوك الإنساني وإدراك ماهيته، ومن هنا كان للتحليل النفسي فضل كبير في إضاءة بعض جوانب الحياة الإنسانية التي غالبا ما كان لها أن تنفلت بعيدا عن دوائر الرصد والتخفي.

المراجع:

- جان كلود فيلو: اللاشعور: بحث في خفايا النفس الإنسانية، تعريب علي وطفة، دار معد، دمشق، 1996.
- كريستفرايد توغل: الأحلام: وقائع وتفسير ونظريات، تعريب سامر جميل رضوان، أرواد، طرطوس، 1994.
- إريك فروم: اللغة المنسية: دراسة ممهدة لفهم الأحلام والحكايات العجيبة والأساطير، تعريب محمود منقذ الهاشمي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1991.
- إريك فروم: الحكايات والأساطير والأحلام، تعريب صلاح حاتم، دار الحوار اللاذقية، 1990.
- عبد الكريم اليافي، فصول في المجتمع والنفس، جامعة دمشق، دمشق، 197.